الزمن و دلالاته في قصة من البطل ؟ لزليخة السعودي

باديس فوغالي
قسم اللغة العربية
كلية الآداب و العلوم الإنسانية
جامعة الأمير عبد القادر

الملخص:

يتناول موضوع الزمن و دلالته في قصة من البطل؟ للاديبة زوليخة السعودي قضية الزمن ليس بأبعاده التقليدية و انما يعني الزمن الداخلي والشعوري.

و يستعين المقال لتأكيد وجهة نظره بنظريات السرد و تطبيقها على القصة موضوع التحليل.

Résumé :

Cet article traite le temps et sa signification dans le roman « qui est l'héros ? » de Zoulikha Saâoudi, non de sa dimension classique (passé, présent et futur) mais de sa valeur implicite et sentimentale.

L'article argumente son point de vue à partir des théories de naration. Il procède à une étude pratique appliquée à la nouvelle.

لم يعد الزمن ذاك المفهوم التقليدي البسيط المرتبط بالأزمنة الكبرى من ماض وحاضر و مستقبل المعروفة بتسلسلها الطبيعي و خضوعها لمنطق الترتيب، و كذا التصورات الواقعية و الاجتماعية، إنما صار ظاهرة تحمل الكثير من الدلالات المتنوعة، و الثرية، فقد تكون هذه الدلالات رمزية أو كونية، أو فلسفية، أو دينية، إذ لم يبق محصورا في إطار ضيق حيث اصبح فضاء يتسع للمجالات النفسية و الذهنية على مستوى الذات، أما على مستوى الجماعة فقد أمسى يستوعب الذاكرة التاريخية والإمتدادات المستقبلية لدى الأمم.

فالزمن يرتبط ارتباطا وثيق الصلة، و يتناسب و تحولات المجتمعات، فهو يتبلور بقفزاتها النوعية نحو التقدم و التطور، و تتباين قيمته من أمة إلى أمة، و من مجتمع إلى أخر. فالزمن عند الأمم الشرقية –مثلا– متقطع، يتكثف في النهار، و يتلاشى في الليل، والزمن الليلي في هذه الحال كما يرى عبد المالك مرتاض.

..يمكن اعتباره ميتا لاغيا، مراعاة للنوم الذي يعتور الإنسان فيتوقف عن ممارسة أي نشاط و يخلد للراحة تحت جبروت اللاوعي، و من ثم لا يمكن اعتبار الليل زمنا حيا فهو زمان من الناحية الموضوعية فقط، أما من الناحية الذاتية فإنه ليس زمانا لأننا لا نعيشه... و إنما ننفصل عنه[1].

في حين نجد الزمان عند الأمم الغربية يختلف، فهو زمان ممتد و مكثف في النهار و متواصل في الليل بغير انقطاع، كما أنه يختلف أيضا من حيث المدلول " فالماضي عندك مثلا لا يعني حتما ما يعنيه عندي، فقد سخرته الشعوب و الثقافات لأدوار متمايزة ومتغيرة، فكان عند هذا القيم على الهوية و على استمرارها، و كان عند ذاك رمزا باليا للقديم المرفوض، و قد تختلف دلالاته بالنسبة إلى المجتمع الواحد من عصر إلى عصر و كذلك شأن المستقبل فقد تحولت به الشعوب و السنوات من مدلول إلى مدلول، ومن تصور إلى تصور [2] . و هكذا يصير للزمن أبعاد و دلالات تختلف باختلاف البنية الفكرية للفرد و الجماعة، و يختلف أيضا باختلاف المكان و البيئة، فزمن المدينة– مثلا– غير زمن القرية .

فالزمن الذي نعنيه إذا في هذه الورقة هو الزمن الإنساني بكل ما تحمله هذه الكلمة من معنى بهذه التهيئة النظرية رأيت لزاما علي –منهجيا– توضيح المدلول الزمني

المقصود في الفن القصصي باعتباره عنصرا أساسيا للنهوض بالنص حتى لا أهجم عليه دفعة واحدة، تفسد علي و عليه الضفاف النظرية المؤثثة لمحاورته من الداخل.

إن قصة من البطل ؟ من النماذج القصصية النسائية القليلة التي انفلتت من جنس القصة القصيرة لتطارد الرواية، أو على الأقل (الميني) رواية كما اصطلح على تسميته عندنا بالجزائر، في شكلها و تداخل أحداثها، و رحابة زمنها الذي يتسع لسنوات طويلة، وتعدد شخصياتها.

يتشكل النص بنائيا من سبعة مقاطع سردية مفصلية، يربط بينها نسيج رفيع يتسم بالحياتية، تمثل المحطات الزمنية الكبرى لفضاء النص كله، و تتميز هذه الأزمنة بالحركية و التغيير، و التكيف مع معطيات الواقع البيئي، فهناك الزمن الخارجي الموضوعي أو الفيزيائي الذي يمثل اليوم و الساعات و الدقائق، و هناك الزمن النفسي الذي يصور الأجواء الداخلية للشخصية ويربطها بماضيها، أو يقفز بها إلى آفاق الآتي والحلم، إضافة إلى زمن ريفي يربط الشخصية ببيئتها الريفية، و أصولها الأولى، و يطبع حياتها بطابع التأقلم مع المحيط البيئوي و المجالات المكانية الصعبة و بالمقابل يطرح زمن آخر، و هو زمن استلابي يفرض على الشخصية الرضوخ، و التكيف مع واقع غريب و شاد تمثله ديار الغربة.

الشخصية النموذجية الأولى هي شخصية الأخضر، تقابلها شخصية زوجته ربيعة. الأولى تقيم في المهجر ضمن ظروف اجتماعية قاسية تتعرض لعوامل الانحلال، والاستلاب الحضاري و اللغوي، و المرض الفتاك،أما الثانية فهي ربيعة الوجه الآخرر لشخصية الأخضر، تقضي سنواتها الأربع في الترقب، و انتظار الزوج الغائب في ظروف أكثر صعوبة و تتعرض للانتهاك في عفتها و كرامتها.

الشخصيتان من حيث الدلالة الاسمية تقترنان بالطبيعة و باللون، فالأخضر كلون، وصفة للاخضرار، رمز للسخاء و الخصوبة، و النماء، و امتداد طبيعي للحياة في عنفوانها و قوة عطائها.. و ربيعة صفة مشبهة ترتبط بالطبيعة مباشرة، و بالزمن الطبيعي، و هو الربيع، الفصل الأبهى في السنة، فالتسمية إذا توحي بالزمن، فالأخضر لا يكون إلا في الربيع، و الربيع لا يكون إلا فصلا، من هذه المعادلة الاسمية يأخذ الاسمان بلاغتهما الرمزية و الإشارية، و يحيلان معا إلى الزمن العام لأحداث القصة، و إن كان ظاهره يبدو مشوبا بالمأساوية و التشاؤمية، فإن باطنه يميل إلى التفاؤل و الاستمرار

والتجديد، فالزوجان ربيعة من الداخل، و الأخضر خارج الوطن يمنحان الثورة وقودا وتأكيدا على التأجج، و الاستمرار من خلال الابن الذي يواصل المسيرة بعد استشهادهما.

تقتسم الشخصيتان النص كالآتي : الأخضر يستحوذ سرديا على المقطع الأول والسادس، و يشارك ربيعة المقطعين الرابع و السابع.

أما ربيعة فتستحوذ على المقطعين الثاني و الخـــامس و تشـــارك الأخضـــر فـــي المقطعين الرابع و السابع، بعملية رياضية نحصل على المعادلتين الآتيتين.

الأخضر مق1 + مق2 – مق4 مق 7

ربيعة مق2 + مق5 – مق4 مق 7

فالمعادلتان كما هوواضح تتمحوران حول العدد سبعة7، والعدد سبعة هنا ليس اعتباطيا، بل هو إشارة رمزية إلى سنوات الثورة التحريرية، فكما أن الثورة استمرت سبع سنوات، فإن القصة قد شكلت من سبع مقاطع. فالقصة من حيث بناؤها إذن ات قطبين، القطب الأول تمثله ربيعة من الداخل، و هي إحالة كما سبق أن أشرت إلى الثورة الجزائرية داخل الوطن، و مساهمة المرأة في الكفاح و التحرر، و القطب الثاني يمثله الأخضر خارج الوطن و بالضبط في فرنسا، و هي إحالة أيضا إلى امتداد الثورة إلى الخارج، بل إشارة إلى الولاية التاريخية السادسة التي يقرها المجاهدون و الساسة الذين خططوا و صنعوا الثورة، هذا بالنسبة لبناء المتن كله، أما فيما يتعلق بالبناء الزمني للشخصيتين فالأحرى أن ينفرد كلاهما بالزمن الخاص به.

البناء الزمني لشخصية الأخضر:

الأخضر كنموذج للفرد الجزائري المهاجر إلى فرنسا طلبا للعمـــل بـــدافع العـــوز والاحتياج يشده الزمن بطرفين متقابلين، الطرف الأول، هو زمن الذاكرة و البحث عـــن الدفء في أغوار الماضي، قريبا و بعيدا، فهناك الماضي الذاتي المشتت بمشاهد جميلـــة من الذكريات المبذورة في ربوع " جلال" و هناك ماض آخر سحيق يغـــور فـــي البعـــد، مترع بلقطات ساحرة و بريئة من طفولته العذبة.

أما الطرف الثاني فهو زمن الحاضر، زمن مائل بمرارة، و رغم الإحساس بثقله وضغطه، فإن الأخضر لا يملك القدرة على تجاوزه،فرغم مظاهر الحرمان، والشعور بالغربة والاكتئاب، و المعاناة من أشكال الاضطهاد اللغوي، و النفسي، و التاريخي والاجتماعي، إضافة إلى الافتقاد لمصادر الدفء فإن الأخضر يحس بقوة غريبة تخدره وتشده إلى الغربة، تقول القاصة مصورة في فقرة سردية قصيرة شعوره بالضياع:

" في كل عام و في كل مرة يقرر فيها العودة للأرض التي تجري من أجلها تلك الدموع من عينيه لكن قيودا ثقيلة تعيده إلى هذا البلد الغريب تشده كمسامير دقت في قلبه و جسده فهو ضائع لا يحمل من هناك أية ذكرى تعطر وجوده و تقوده للعودة"(3)

لأن الماضي المتحدث عنه هنا ليس الماضي الإنساني الفردي الجميل، بل هو ماض مشكل زمنيا من قبل غطرسة المجتمع و ظلم العشيرة، فهو يقطر بالحزن الأسى، ويشوبه السواد و القتامة، و ذلك لسببين اثنين:

-**أولهما :** أن الأخضر حرم من الاقتران بمن يحب، و لذلك راح يبحث عمن تحمل مواصفات من أحب، فيجد معادله العاطفي في فتاة إسبانية، تعرف عليها، وتعمقت علاقتهما حين اشتد عليه المرض، و ألزمه الفراش بالمستشفى،فاهتمامها به كممرضة، ورعايتها الخاصة له، كانا سببين كافيين في لم شملهما تحت سقف واحد، فهي تشبه زيتونة حبيبته المفتقدة في سمرة بشرتها و سواد عينيها.

-**أما السبب الثاني :** فيعود إلى حرمانه من الاقتران بزيتونة، حيث اعترض حبهما البريء جبروت العشيرة ذات القيم و الأحكام المتحجرة، فالأعراف الجائرة كانت سببا وجيها في تعاستهما، و إخماد الحلم الذي يراودهما للزواج. أما علاقة الماضي بكل من شخصية الأخضر و ربيعة، فيفرض التطرق إليها و تناولها لكن من زاوية أخرى. "الأخضر " أحب " زيتونة " على مستوى الحلم، أما على مستوى الواقع فقد اقترن بربيعة وربيعة بدورها أحبت خالدا، لكنها أرغمت تحت هيمنة السلطة الأبوية على الزواج من الأخضر.

إذن فكل واحد منهما يعادي ماضيه الاجتماعي، لأنه يشعر في قرارة نفسه بالظلم، وحين يستذكر أحداث هذا الاغتيال، اغتيال الحب و حرمان الاقتران بمن يحب، وهي ظاهرة اجتماعية قديمة عرفتها و كرستها بعض القبائل العربية في شبه الجزيرة، وكأن هذا السلوك العشائري امتداد وراثي للسلوك القديم، الذي كان يمارس على المحبين بقسوة وصرامة. فهذا الزمن يتسم بالتواصل عبر الذاكرة و الانغلاق، فهو زمن جاهز غير قابل للتطور و الانفتاح، تلخص الكاتبة بصفتها راوية و منسقة للأحداث في آن وضعهما فتقول عن ربيعة.

((لم تحب الأخضر و لم يحبها كان مجرد رجل و امرأة أجبرهما الغير على أن يكون كل واحد منهما قيدا لصاحبه كان يتركها و يناجي "زيتونة" و التي حرم منها،

وكانت تتساه و تفكر في "خالد" الذي وعده أبوه ثم نكث وعده بعد أن مرت سنوات على غيبته))[4]

في ظل هذه الفوضى الاجتماعية، و التعفن العلائقي بين الأفراد و القبيلة يذوب الإحساس بجدوى الزمن و فاعليته ليس على مستوى كل من ربيعة و الأخضر فحسب، بل على مستوى الجماعة كلها، كـــ "جلال" تلك النقطة الصغيرة النائية والمعزولة عن حركية المدينة، ثابتة لا تتغير، لأن الزمن في ربوعها زمن ميت و جامد بسبب الأعراف الحجرية الجاهزة،.. فأما الرجال فقبلتهم الهجرة هروبا من عنجهية الأعراف البالية متسترين تحت غطاء البحث عن العمل، و أما النساء فمصيرهن التقوقع على الذات من الداخل، و الانغلاق على النفس، فينشأ المجتمع مبتورا موزع القوى، لا يملك القدرة على الانطلاق و إثبات الذات، و لهذا نجد كل من الشخصيتين النموذجيتين في النص مخاصمتين للماضي و رافضتين له، فرفض المصالحة مع الماضي و الجذور الأولى للإنسان يعني افتقاده للهوية الحقيقية التي تمنحه شرعية الاستمتاع بنكهة الحياة، فالأبطال في هذه القصة رافضون لواقعهم، و لماضيهم حتى إذا ما لاحت بشائر الثورة في الأفق عاد الائتلاف بينهم و بين واقعهم الاجتماعي و انصهرت المطامح و الرغبات، وتوحدت الغايات تحت لواء شعار ثوري واحد نابع من الأعماق و صفاء القلوب.

و لتحديد البناء الزمني بدقة حري بي تقسيم أهم المراحل التي عاشتها الشخصية عبر مسار القصة الزمني، و عليه فإن شخصية الأخضر تحكمها ثلاث مراحل:

المرحلة الأولى : مرحلة غياب الوعي بالذات:

و فيها يسيطر الإحساس باللاجدوى حيث يهجر الأخضر دشرته نحو فرنسا التـــي لا ترحمه في أخلاقه، و لا في افتقاد أهم عناصر هويته، و كالمصاب بالعقدة "المازوشية" ينغمس في طلب المحرمات، فيبالغ في إدمانه على عب الخمرة بدون رادع، والاخـــتلاف إلى العلب الليلية، ليس اقتناصا للمتعة، و إنما طلبا للنسيان، فهو يدفع من جيبه، ويهـــرع إلى ما يدمر صحته مقابل نسيان ماضيه المغلف بالسواد و القتامة. فكل الماضي بمشاهده المرعبة، و قيمه المتعسفة لم يعد له أثر في حياة الشخصية إلا تلك الذكرى الندية العالقـــة بقرار الذاكرة و الممتدة من نسغ الطفولة و رحم البراءة، فعندما يستبد به اليأس ويتعمـــق شعوره بالوحدة و الاغتراب يتذكر ذلك المشهد الخالد تحت أنغام اسطوانة لمغني عربـــي، اللحن الريفي الوحيد القادر على نقله من المقهى المعتم بقلب مدينة "قرونوبل" إلـــى أفـــاق ((القرية الصغيرة يمرح فيها الرعاة على مرتفعات التلال يغنون الأغاني ويرمون الحصى

فتنطلق كسهام تستقر في أحشاء الساقية))[5]، فقد ((أصبح الرجوع إلى الماضي ملاذا ومهربا و منفى بدل أن تكون العودة إليه لحظة انتقالية تستريح فيها الذات وتجدد قوتها استعدادا للحظة التالية، فلا نعجب بعدئذ، إن كان التشاؤم و القلق السلبي غير المنتج سمتين بارزتين في هذه الشخصية))[6]، فزاوية رؤية الشخصية لماضيها مزدوجة، إذ أن موقفها من الماضي الاجتماعي موقف خصومة، و معاداة، إما ماضيها الذاتي الخاص فموقفها منه موقف مصالحة و محاباة.

المرحلة الثانية: هي مرحلة المرض و البحث عن الدفء، و بداية الوعي بالزمن:

يقول الأخضر في مستهل القصة محدثا صديقه العائد إلى ديار الوطن:

((أربع سنوات في باريس أتجهل عصارتها يا صاحبي أربع سنوات في ظلام المصانع و المقاهي و تشرد بين الأزقة و الحانات لم أستطع أن أوفر منها شيئا أجده الآن في محنتي كل عرقي، الذي سال امتصته الآلات الوحشية، أجل لا يملك مقومات الحياة عبثت به الحياة))[7]. فهذه الفقرة السردية و على قصرها تشمل البنية الزمنية الكاملة لشخصية الأخضر، فالزمن في هذا المقطع مرير، فيزيائي ماثل بقوة مقرونا بالسواد من جهة، و بالاحمرار من جهة أخرى، فظلمة المصانع و ما ينجر عنها من معاناة، ورهبة وخوف، لأن الظلمة عادة ما توحي بهذه المعاني المليئة بالسوداوية والانكسار، والرعب، والاحمرار الذي يرمز له عادة بالدم، أو الاغتيال، أي اغتيال القيم و الأخلاق التي توارثها عن أسلافه، فالشخصية مأسورة داخل هذين اللونين المخيفين، و هي تعي وعيا تاما، وتحس إحساسا لا يشوبه ريب هذه السنين و يزداد ضعفها شراسة حين تقضي شطرا من هذا الزمن بين مخالب المرض فريسة للضياع و فقدان الأمل، فكل لقطة من الوحدات اللغوية للفقرة السابقة يؤدي دورا وظيفيا في إبراز مأساة الشخصية عن طريق إحساسها الداخلي بالضياع، و وعيها بذاتها المريضة .

فالزمن يؤطر الشخصية تأطيرا رباعيا و كليا محمولا على المعنى الدلالي الملمح بقرينة السنوات الأربع التي بخرتها الشخصية في ظلمة المصانع كما جاء في سياق اعترافها بواقعها المرير.

أما الوعي بالزمن المباشر فيتقاسمه زمنان- : زمن يتسم بالتجدد و التغير، يقابله زمن جامد ساكن.

فالزمن الأول محمول دلاليا على الأفعال الآتية(أستطيع، أجده، أتجهل، أدخل) وهي أفعال تدل على المستقبل و التجدد.

أما الزمن الثاني فمحمول دلاليا على الأفعال" سال، امتصته، عبثت" وهي أفعال ترتبط حديثا بالماضي، و الماضي مهما تغير الإنسان يبقى ثابتا غير قابل للتجدد، وهكذا نلفي الشخصية يصارعها مستويان من الزمن، و إن اتصف الأول منهما بالثبات، والثاني بالتحول، فإنهما يشخصان عذاب الشخصية و يصورانها على هيآت مختلفة في سياق الماضي، و الحاضر و في سياق المستقبل أيضا متضمنا في الحاضر.

المرحلة الثالثة : و هي مرحلة الشعور الوطني و الوعي السياسي

و تنقسم بدورها إلى شقين، يمثل الشق الأول منها السياسي، والثاني الكفاح المسلح، و هي في مجملها تكشف عن حقيقة تاريخية تتمثل في توسيع رقعة الثورة الجزائرية و امتدادها إلى خارج الوطن، بدءا من النشاط السياسي، ثم الانتقال إلى النشاط المسلح.. الأخضر يستيقظ على كلمات حماسية من لدن شاب مفعم بالروح الثورية، أوفد للقيام بالنشاط و التعبئة الثورية داخل صفوف المهاجرين، فكان تأثيره شديدا على شخصية الأخضر، إذ انتقل من طور الانسلاخ الأخلاقي و الانصهار الحضاري إلى حياة أخرى تتسم بالتفاؤل و الاعتزاز، تقول القاصة في سياق سردها عن تحول الأخضر: ((..إنه يحب من جديد و من حبه تنبعث إنسانيته مشرقة بعد أن كادت تتلاشى في غمرة العفونة))(8).

في هذا المشهد الدرامي الموجز، و المكثف في آن واحد تتقابل جملتان، تحمل إحداهما معنى التفاؤل و الإشراق، و تدعو إلى تبني الزمن الإنساني، و هو سيد الأزمنة، لكونه يجعل من الإنسان سيدا يمكن أن يغير ما يحيط به انطلاقا من تغيره من الداخل، وهي حقيقة عبر عنها الله تبارك و تعالى في محكم تنزيله (9)، أما الجملة المقابلة في المعنى فتمثل ما كان، و يتصف زمنها بالتلاشي و الزوال، فالفعل ينبعث، يقابله الفعل تتلاشى، و لفظة مشرقة تقابلها العفونة، و هكذا نجد الماضي الذي كان محبوبا وملاذا للهروب من ظلم المجتمع القبلي أمسى عفونة تبعث على التقزز و الاشمئزاز وبعد أن كانت محصورة في مجالات ضيقة تحدها الأزقة المتسخة، و المصانع، والمقاهي المعتمة،و العلب الليلية الرخيصة و المخامر، و هي مجالات تعكس السوداوية والغبن والتشاؤم، أضحت مشرقة بفعل التفاعل مع الموقف الحياتي الجديد، و هو موقف تم في الوضوح و مع ((كلمات الفجر، استيقظ ضميره كله، استيقظ في لحظة هائلة)) (10).

و يلعب هذا الزمن دورا مهما في هذه المرحلة، إذ أن الشخصية لما وعت واقعها التاريخي و الوطني، و تفطنت إلى مدى انسلاخها من هويتها الحقيقية، رجع وعيها بجذورها العقيدية، فكانت الصحوة و العودة إلى الذات مصحوبة بكلمات الفجر، وهو الآذان، رمز النداء الديني.

بناء الشخصية إذن في هذه المرحلة تزامن فيه البعد الديني مع البعدين الوطني، والقومي، و سارا معا حتى المرحلة الثانية من حياة الشخصية في هذا المستوى، وهي مرحلة الكفاح المسلح، أين تتساوى كل الأزمنة الخطية الكبرى، فلم يعد الحاضر مهما، كما لم يعد الماضي مصدرا لمراجعة الذات، إنما هناك شيء واحد يسيطر على مجريات الأحداث و يشغل بال الشخصية و يصير ديدنها، يستمد قوته من ماضيها المشرق الذي كان ((في يوم من الأيام ماضيا ميتا لا حياة فيه))(11) كما تعلق القاصة.

و يتحول حاضره إلى حاضر ثوري ممارس لا يعرف الجمود والثبات، إنما هو خاضع باستمرار إلى الانطلاق و التغير، فتقدم الشخصية بفعل قوة هائلة تحفزها نحو خزانات البترول لتفجيرها، بعدها تسقط صريعة تحت طلقات النار، وهكذا يتحول هذا الحاضر الفردي إلى مستقبل يخص الأمة كلها، تكتنفه الآمال و تكلله الأعمال البطولية المتواصلة.

البناء الزمني لشخصية ربيعة:

ربيعة كشخصية محورية تمثل عنصر الأنثى في النص، و هي الوجه الآخر للأخضر، ربيعة من داخل الوطن، و بالذات من أعماق الريف الجزائري، و الأخضر من وراء البحر كلاهما يجسد جانبا من مسيرة النضال الجزائري و الثورة، فاللون الأخضر الذي هو أحد ألوان العلم الجزائري، و يعكس طبيعة الجزائر الخلابة، تستلهم منه الاسمية الشخصيتان الثنائيتان في القصة، فالاسم تم اختيار مادته اللغوية اختيارا رمزيا، والواقع أن بناء شخصية ربيعة يتشكل من ثلاث مراحل زمنية، تحيل كل مرحلة من المراحل الثلاث إلى جانب مهم من مسيرة الكفاح الجزائري، و مشواره النضالي المتواصل، فالزمن المهيمن على مسار مجريات الأحداث و بناء الشخصيتين هو زمن الثورة، الذي يفصل بناء الشخصية زمنيا وفقا لمراحل الثورة نفسها.

أولا : زمن الاغتراب:

هو زمن كالح، و ضاغط، تعاني تحت وطأته الشخصية أشكال القهر الاجتماعي، و ألوان الخيبة و اليأس، زمن موحش، يجرد الإنسان من إنسانيته، و لا يدع له مجالا

للتعبير عن رغبته، و ممارسة أحلامه و طموحاته..، ربيعة تزف مجبرة إلى الأخضر الذي لا تحبه، و تحرم ممن رضيت به زوجا، و هي لا تملك في ذلك قوة تسترد لها حقها في الحياة فتتذمر، و تكظم تنهيدة حرى متمنية أن ((..لو كانت لها شجاعة اليوم لمزقت الخيمة فوق رؤوس أهلها))[12].

الماضي الاجتماعي بالنسبة لربيعة يعني الأسر بكل ما تحمله هذه اللفظة من مدلول، و لذلك ترى فيه ألوان الظلم و الطغيان، و هي حين بدأت تشعر بذاتها أحست أكثر مدى سعة حجم الظلم الذي عانته، و ما زالت تقاسيه.

فتمنت انهيار هذه الأعراف الحجرية الممقوتة، و التي لا تعطي قيمة للأنثى مماثلة للتي تمنحها للذكر، و إن كان هو أيضا معرضا للانتهاك، و لكن بصورة أقل.

و الواقع أن توظيف الخيمة بدل المنزل و البيت، يحمل دلالة بيئية، وأخرى اجتماعية ترتبط بعدم استقرار الأهالي في منطقة واحدة، فهم رحل دائمو الترحال والتنقل، ومن ثم فالزمن عندهم غير ثابت، فهو متواصل باستمرار، تتوقف فعاليته وديناميته على المناطق ذاتها،تمليه الخصوبة و الجفاف، كما تحيل الخيمة إلى الزمن الموروث، زمن القبيلة المتوارث من أعماق شبه الجزيرة العربية، و لئن عبرت الخيمة عن مدى رحابة الزمن، و تجدده مع تجدد المواسم و الفصول، و ارتباطه بمواسم الجني فإنه من جانب أخر، زمن هش غير قابل للولادة، أي التحول من نمط حياة إلى نمط حياة أخرى، أكثر تطورا، لذلك كانت ربيعة تحس تحت ظله بالغربة، و الاغتراب، غربة نفسية ناجمة عن هجرة الزوج ونظرة المجتمع العشائري الدونية للمرأة بوجه عام، و للمرأة التي تعيش في غياب البعل بوجه أخص، و مهما يقال عن انكسار نفسية الشخصية في هذه المرحلة، فإن شعورها بلا جدوى الترقب، و الانتظار جعلها تتمرد و تثور على شعورها الأنثوي محاولة التخلص من ربق الإحساس بالغربة. يزورهم الطيب القادم من الغربة، والمحمل بأخبار الأخضر، لا يحرك فيها ذلك ساكنا، و كأنها ليست في حاجة إلى تلقي أواستقبال أخبار عن زوجها الغائب، لأن الزمن عندها صار لا يستوجب الإحساس بالوجود، ولم يعد يكتفي بالتذكر و الحلم بخلاف فاطمة عند زهور ونيسي[13]، فلا يحق لها أن تشتكي أوتبدي رفضا أو حتى احتجاجا للواقع المفروض عليها، ففاطمة زهور ونيسي، يبدأ شبابها في الذبول تدريجيا، رغم أنها لم تتجاوز العقد الثالث، و ذلك نتيجة تأثير الغربة الداخلية التي تعانيها من جراء الوحدة و الانكماش على الذات إلى الداخل، لا تملك وسيلة تخفف بها عن نفسها غير الدموع تحاول بها التخفيف عما تقاسيه من غم وهم، تترقب

رسائله بفارغ الصبر، و تنتظر عودته بين يوم و آخر، فهي بأحلامها وآمالها تعيش زمنين، أو مستويين من الزمن:

-زمن خارجي قاتم غير متجدد.

-و زمن نفسي داخلي يزودها طاقة، و يزيدها إصرار على الصبر والتجلد، إلى أن يسقط في سمعها الخبر الذي يقضي على كل آمالها، وهو زواج أب ولديها بامرأة فرنسية، حينها تعلن التمرد بطريقتها الخاصة على كل الأعراف، فتقرر الرحيل لكن ليس إلى بيت والديها، لأنه سيعيدها إلى بيتها الزوجية غصبا عنها، ويكرس دونيتها بحكم خضوعه، و تسليمه بالقيم العرفية للبيئة، و إنما تنغلق حكايتها على انفتاح جديد يومئ بأنها أقدمت على التخلص من قوقعة الزمن الاجتماعي الكالح.

أما " ربيعة" زليخة سعودي، فتكاد رباعية السنين أن تقضي على بارقة الأمل التي ظلت ترعاها، و برغم المعاناة تتحمل ثقل الزمنين الاجتماعي والنفسي على السواء، تنتصر في النهاية، بفعل إيمانها بالثورة. و الحقيقة وإن كانت الشخصيتان تؤطرهما بيئة ريفية متشابهة التضاريس و متجانسة القيم العشائرية، فإنها تختلفان في رد الفعل، فإذا كانت فاطمة قد استسلمت لمصيرها المحتوم، فإن ربيعة وجدت المعادل الموضوعي لنسيان زوجها – و هو يمثل الماضي الميت – بالحاضر الذي يشغلها ويملأ عالمها عن طريق تفرغها لتربية ولديها، و التكفل بإعالة أسرتها الصغيرة، ثم خدمة الثورة كما يأتي بسطه في المرحلة الثالثة من بناء هذه الشخصية الزمني.

ثانيا: زمن المهام و التبعات:

هو امتداد طبيعي لزمن الاغتراب، ورد فعل إيجابي عليه، تفارق كنة الشخصية الحياة، فترث عنها إرث إعالة ولديها، و سد حاجياتهما الضرورية، فتمارس إضافة إلى الأعمال البيتية و الموكلة إليها، نشاطات إضافية أخرى، كغزل الصوف، وحياكة البرانس،لأبناء "جلال" الموفورين و نظرا لمهارتها و إتقانها لعملها تروج بضاعتها، فيقصدها الزبائن من داخل و خارج جلال، و هي إيماءة لنمو هذه الشخصية وبنائها تدريجيا.. تتفرغ كليا لهذه المهام، فتنسى كل شيء إلا ولديها كما قالت عنها الكاتبة أثناء سردها عن وضعها الاجتماعي الجديد((لم تعد تفكر إطلاقا في الأخضر، و لا في خالد، يوم ولدت نزيهة أعطتها كل عواطفها السخية و جمدت نهائيا فلا حزن و لا فرح))[15].

الحياة الجديدة التي تحياها الشخصية، و تؤمن بمدى ملاءمتها لظروفها تفجر فيها طاقة العمل الخلاق، فتغدو ذات قيمة في المجتمع الذي ينكرها و يمارس عليها اضطهاده

إذ صار طالبو البرانيس المتقنة الصنع، بعد أن كانت فكرة تعاني ألوان التهميش والشعور بالنقص، خصوصا و أنها امرأة ناضجة الأنوثة، و بعلها غائب فقد كانت تشعر بالمرارة عندما تصلها الأخبار عما يدور حولها بين النسوة في ينبوع القرية، إذا لم يعد يهمها في هذه المرحلة ما يتردد على الألسنة و لا حاجتها إلى الزوج الغائب بقدر ما صار اهتمامها منصبا على الراهن و الآتي، فالزمن عندها صار ما تعيشه وما تمارسه من اعمال، وما تحلم به من طموح واهتمامات كبرى، ليس كالتي كانت تراودها من قبل، من اشتياق إلى الطفولة و حب "خالد" المتبخر بفعل الأعراف أو ما ترجوه من الأيام حتى يعود زوجها، فبعد موت كنتها و تفرغها نهائيا للتكفل بنفسها وابنيها، صار الزمن ملكا لها، وغدت حياتها ذات طعم و نكهة، و صار لوجودها معنى خاص، توسعت مهامها لتعانق الثورة، توسع استيعابها للزمن، فلم تعد تضاريس أولاد جلال قادرة على احتواء رؤاها، فقد أصبحت كما تقول القاصة عنها: تفهم معجزة كبرى حلت برأسها ذات صباح فهمت معنى الحياة و معنى الوطن الكبير الذي يضم الملايين(16).

ثالثا: زمن الثورة:

يتمثل في معايشة الشخصيتين المتقابلتين الأخضر من الخارج، وربيعة من الداخل الأحداث بكيانهما و مشاعرهما، ففي الوقت الذي يصحو فيه الأخضر من سباته، ويقدم بفعل عمل فدائي جريئ، على تفجير خزانات البترول بطريقة ناجحة أعد لها سلفا، كما وضح سابقا، قصد إعطاء بعد دولي للثورة الجزائرية، و إحساس الرأي العام العالمي بالتصعيد الثوري الفعال إلى جانب الإشارة إلى عدم سماح الجزائريين لفرنسا بالتمتع بخيراتها، في هذا الظرف بالذات من تشكل الوعي الثوري لدى الشخصيتين، تقدم ربيعة احتجاجا على قتل نفسها لما ترتكبه فرنسا من جرائم إنسانية بشعة بعيدة كل البعد عن شرف الحرب، فبهذا الفعل تضع حدا لنمو جنين كان ثمرة اعتداء وحشي من وحوش فرنسا على عفتها.

و قد مهدت لفعلها الثوري هذا، مراحل سابقة تمثلت في نسيان ذاتها كأنثى لا تنتج في ظل مجتمع ذكوري مبتور، ثم المساهمة في الثورة عن طريق الثوار، رغم أنها كانت تعلم " أن غسل الثياب لا يؤدي شيئا للثورة" (17) كما تقول في سياق السرد، لكنها في قرارة نفسها تحلم بأنها تقدم واجبا عظيم، و فعلا متميزا بطريقتها الخاصة. كان لحادثة انتحارها صدى واسع في " جلال" و ما خلفها من قرى و دواشر، جعل الناس يتساءلون

في الأخير، أي الزوجين البطل ؟ أهو الأخضر خارج حدود الوطن ؟ أم هي ربيعة من عمق وهاد "جلال" ؟ و هو سؤال عظيم نهض على فحواه تشكيل النص فكريا وفنيا.

الهوامش

1-عبد المالك مرتاض: الألغاز الشعبية الجزائرية، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، ص112-.113

2-عبد الصمد زايد : مفهوم الزمن و دلالاته في الرواية العربية المعاصرة، الدار العربية للكتاب، تونس، 1988، ص.8

3-زوليخة السعودي: من البطل؟ آمال العدد الأول أفريل، 1969، ص .8

4-م، ن، ص .15

5-م، ن،ص.8

6- بشير بويجرة محمد: الزمن في الرواية الجزائرية 1970-1986 مخطوط دكتوراه في الآداب جامعة، وهران، 1990-1991- ص .25

7-زوليخة السعودي من البطل ؟ ص .6

8- م، ن، ص.21

9-<< إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم >> سورة الرعد الآية .11

10- من البطل ؟ 21

11- م، ن، ص .27

12- م، ن، ص .9

13-أنظر قصة " بحر الطوفان" من مجموعة "الظلال الممتدة"، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر .1980

14-م، ن، ص.70

15- من البطل؟ ص .15

16- م، ن، ص .20

17 م، ن، ص .21